



ISSN: 1817-6798 (Print)

Journal of Tikrit University for Humanities

available online at: www.jtuh.org/
JTUH
 مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية
 Journal of Tikrit University for Humanities

Hossam Saadi Abdul Razzaq Al-Ani

Anbar University / College of Education Al-Qaim

Nidaa Thabet Radi Al-Dulaimi

Anbar University/Al-Qaim College of Education

* Corresponding author: E-mail :
nada.thabit@uoanbar.edu.iq
 ٠٧٨٦٠٧١٣٧١٧

Keywords:

Philosophy
 Death
 Elegies
 Jawahery

ARTICLE INFO**Article history:**

Received 1 Sept 2024
 Received in revised form 25 Nov 2024
 Accepted 2 Dec 2024
 Final Proofreading 2 Mar 2025
 Available online 3 Mar 2025

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER
 THE CC BY LICENSE

<http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>


Journal of Tikrit University for Humanities

Philosophy of Death in Al-Jawahiri's Elegies

A B S T R A C T

The philosophy of death has been a subject of contemplation since ancient times. Death represents the most profound challenge for the soul, particularly for sensitive poets. Death is an unavoidable reality, a constant challenge faced by humanity throughout history, and it represents a truth from which there is no escape. This theme is evident in the earliest human texts, where individuals sought to alleviate the primal fear of the inevitable end through their relentless pursuit of immortality, often referred to in ancient times as the elixir of life. This theme is clearly recognized in Al-Jawahiri's poetry who is influenced by his relatives' and friends' death. This, as a matter of fact, gives his poetry a melancholic mood reflected by different means of representation.

© 2024 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: <http://doi.org/10.25130/jtuh.32.3.1.2025.05>

فلسفة الموت في رثائيات الجواهري

حسام سعدي عبد الرزاق العاني/ جامعة الانبار/ كلية التربية القائم

نداء ثابت راضي الدليمي/ جامعة الانبار/ كلية التربية القائم

الخلاصة:

الأدب العربي سلك مسالك شتى في معالجة الموت والنظر إليه، والتأمل فيه كذلك، فالأدب لم يخل من نظرة فلسفية أو لوحة فنية شديدة الإغراق والتصوير لمسألة الموت، نجد الأدباء والشعراء قد

أخذوا من الموت صورة حيّة ليعبروا عن آلامهم وأحزانهم بفراق أحبائهم وأصحابهم. فلسفة الموت موجودة منذ الازل البعيد فالموت هو التجربة الأقسى على النفس، وهي أشد قسوة على نفس شاعرٍ مرهفٍ كالجواهري يدرك حقيقة المعاني والألفاظ، فالموت قادم لا محالة وهو مصيبة الإنسان على مر الأزمان، وهو الحقيقة التي لا مفر منها، يواجه الإنسان لامحالة شابًا كان أم شيخاً كبيراً، يحيط بنا في كل حين.

إن فكرة الموت في الإبداع البشري سواء أكان أدباً أم فلسفةً أم فناً من الفنون الأخرى، هي فكرة قديمة قدم الإنسان؛ إذ نجد هذه الفكرة ثابته في أول نص إنساني سعى فيه الإنسان للتخلص من أول ربة الخوف من النهاية الحتمية، من خلال بحثه الدؤوب عن نبتة الخلود، أو ما تعارف عليه قديماً بإكسير الحياة. الحديث عن الموت في مجال الإبداع سواء أكان (فلسفةً أم أدباً) فهو أشبه ما يكون حديثاً عن شمس أشرقت في مكان ما ثم غربت فأشرقت في مكان آخر، فالموت عبارة عن حضور وغياب، غياب هنا وحضور هناك.

ظهرت ملامح الموت واضحة في أبيات شاعرنا الجواهري، وهذا دليل على أن هذه الفكرة قد أخذت منه مأخذاً كثيرة فكانت حياته تحمل آلام وأحزان دفعت به إلى ترجمة احساسه إلى هذه الصور الشعرية التي اتخذت من ظاهرة الموت منهلاً يغرف منه الشاعر صوره، فإن موت الأحبة والأصدقاء قد ترك في نفسه وشعره أثراً بليغاً انعكس في شعره الحزين الذي هو مادة دراستنا هذه.

الكلمات المفتاحية: فلسفة، الموت، رثائيات، الجواهري

المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من بعثه الله للمسلمين، وخاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

إن ظاهرة الموت لا تزال تشغل بال كل إنسان وهذا اللغز الذي حيرّ الادباء والشعراء والفلاسفة والعلماء، القدماء والمحدثين عبر ومختلف العصور، ودارت حوله الكثير من الأساطير ونسجت عنه الخرافات والحكايات الفناء والنهاية والختام والوداع ... إلخ

إن هذه التسميات لا تقي بالغرض للتعبير عن ظاهرة الموت ولا تزيل الغموض ولا تشفي الغليل ولا تحل رموز القضية، وقد وقع اختياري على شاعر عاش ظاهرة الموت وهو أحد رواد الحداثة الشعرية في الأدب العربي المعاصر ألا وهو شاعر العرب الأكبر (محمد مهدي الجواهري).

من الملاحظ إن حياة الجواهري كان لها تأثير واضح وجلي في مسيرته الأدبية فتنوعت الأغراض

الشعرية التي تناولها، ومنها غرض الرثاء إذ شغل أغلب شعره كما لمسيرته السياسية التي أودت به إلى المنفى والابتعاد عن الوطن، ومفارقته الأهل والخلان دور كبير في ترك بصمة واضحة في نفس الشاعر الحزينة وقصائده.

الجواهري أكد مرارا وتكرارا بأن من يتخذ طريق المقاومة منهجا له يجب عليه أن يكون مستعد للمواجهة والتضحية في أية لحظة فقال: "وفي الواقع لم أتحمل كل ما تحملت وعانيت ما عانيت إلا إيمانا بأن من يسير على درب المواجهة أو المقاومة عليه البقاء وجها لوجه حتى أمام الموت وإلا فكيف يكون الصامد" (الجواهري م.، ١٩٩١).

أما منهجية البحث فتناولنا فيها مفهوم فلسفة الموت وأثر الرهبة التي يتركها في الإنسان بمجرد التفكير به، إضافة إلى أن الموت تتبعه حياة أخرى، وما ذكرته الأساطير من صراع دائم بين الخير والشر، وتناولنا لفظة الموت في المعاجم، ومن بعدها فلسفة الموت عند الجواهري وكيف كان لهذه الفلسفة أثر كبير على مسيرة حياته ونفسيته التي ظهرت بصورة جلية في أشعاره، وتناولنا الرثاء عند النقاد القدماء والمحدثين، ومعرفة ماهيته بالإضافة إلى تعريفه لغةً واصطلاحاً.

كما ذكرنا صور الرثاء عند الجواهري وما سطر من قصائد في هذا الغرض تعد من أروع القصائد الشعرية التي تركت في نفسه أثرا بالغا لما مر به من أحزان وفواجع وفقد لأهله ومحبيه، وكذلك احتوى المبحث الثاني على مطلبين أيضاً، أما المطلب الأول وذكرنا صورة الأخ الشهيد وكيف كانت لهذه الروح القريبة من الشاعر من أثر ترك جرحا عميقا في مسيرته الأدبية، وكان لزوجته نصيب أيضا من فواجعه وأحزانه التي مر بها ولما تركته فلسفة الموت في حياة الجواهري، وأيضا تطرقنا لرثاء أمه (فاطمة) التي كان لها أثرا واضحا في أشعاره.

مفهوم فلسفة الموت

لم يرهب خيال الإنسان شيء كما ارهبته فكرة الموت، ولم يثر عقله من أفكاره كفكرة انعدام العقل ذاته، فما الذي ستكون عليه الحال عندما يمضي إلى النوم ولا يفيق أبداً، وكيف كانت حاله قبل أن يحل ضيقاً على هذا العالم من هنا كانت دورة الحياة والموت والبعث هي الفكرة المحورية في الدين والاسطورة، الفكرة التي يتركز حولها لا شعور الفرد في الماضي والحاضر (السواح، ١٩٩٦)

وبدراسة ما أنتجه فكر الإنسان عبر العصور، نجد أن الموت لم يكن أبداً مرحلة نهائية من شأنها وضع حد لوجود الفرد بجميع صوره، بل اعتبره دوماً بمثابة عملية تؤمن عبوره لحالة أخرى عن الوجود، تختلف - في كليتها - عن الحالة التي ألفها في حياته على الأرض.

وتشمل جميع الاساطير - المتمثلة في تراث الشعوب - على وجود رؤية تختزلها جميعاً، تحت مبدأ الصراع الأزلي بين الخير والشر، فالهدف ظل دائماً حفظ الحياة وصيانتها، وإبعاد الموت الأذى عنها.

فالخير هو الحياة والنماء والخصب والطمأنينة والسعادة والشمس المشرقة، والشر هو الموت والدمار والجفاف والخوف والظلام. ولا يخرج مفهوم النعيم والجحيم، كما طرحته الأديان السماوية، من نطاق دلالة ميتافيزيقية عليا، لحدي الحياة والموت (منصور، ١٩٨٧).

فالمعنى اللغوي في معاجم اللسان العربي يشير إلى التعريف بهذه اللفظة، ففي لسان العرب: "الموت خلق من خلق الله تعالى، غيره: الموت والموتان ضد الحياة، والموات بالضم: الموت، مات يموت موتاً" (ابن منظور، لسان العرب، ٢٠٠٣) هذا بالنسبة للتركيب الصرفي للفظ الموت، ثم بعد ذلك يأتي الحديث عن مفهوم الموت، بقوله: "الموت السكون، وكل ما سكن فقد مات، وهو على المثل" (ابن منظور، لسان العرب، ٢٠٠٣)، وفي القاموس المحيط: "مَاتَ يَمُوتُ وَيَمُوتُ وَيَمُوتُ، فهو مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ: ضِدُّ حَيٍّ" (آبادي، ٢٠٠٥).

فالموت "هو عدم اتصاف الجسم بالحياة سواء كان متصفاً بها من قبل كما هو الإطلاق المشهور في العرف أم لم يكن متصفاً بها إذا كان من شأنه أن يتصف بها، والحياة ضد الموت وهي في نظر الشرع نفخ الروح في الجسم وقد تعسر تعريف الحياة أو تعريف دوامها على الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين تعريفاً حقيقياً بالحد، وأوضح تعاريفها أنها قوة ينشأ عنها الحس والحركة" (ابن عاشور، ١٩٩٧).

إن الإنسان الباحث في الفكر الغربي استطاع أن يكتشف حتمية الموت حين تجاوز العقلية البدائية، ونشأ التفكير المنطقي، إن هذا التفكير هو الذي سمح للإنسان أن يصل من الأحداث العديدة التي يلاحظها إلى قاعدة عامة وإلى قانون نصه أن البشر جميعاً وقد تصدى المفكر المعاصر لهذه النظرية التي يقول بها (بول لوي لاندسبيرج ١٩٠١-١٩٤٤)، وتتص إلى أن الإنسان يصل إلى معرفة الموت من خلال تجربة خاصة بموت شخص لصيق بنا. "وعلى أية حال فإن المعرفة بحتمية الموت قد غدت شيئاً فشيئاً - ملكية مشتركة للإنسانية ومن ثم فلا يمكن النظر إليها بوصفها اكتشافاً جاء كالحادث الفجائي" (جاك، ١٩٨٤).

فلسفة الموت عند الجواهري

ظاهرة الموت اوجدت اسئلة محيرة لدى الإنسان منذ القدم ، فحاول الإجابة عنها، وتفسير هذه الظاهرة، وربطها بظواهر طبيعية تلنقي معها في نفس الطريق المشترك ألا وهو الفناء، فالإنسان يرى إن "الموت فعل فيه قضاء على كل فعل وإنه نهاية كلية للحياة، فقد تكون هذه النهاية بمعنى انتهاء الامكانيات، وبلوغها حدّ النضوج والكمال، كما يقال عن ثمرة من الثمار انها بلغت نهايتها، بمعنى تمام نضجها، واستفاد نت امكانية نموها، وقد تكون هذه النهاية بمعنى وقف الامكانيات عند الحد ، وقطعها عند درجة مع بقاء كثير من الامكانيات غير متحقق بعد فيكون الموت بذلك حالة من حالات الحياة" (عبد الرحمن، ١٩٦٢).

إن الشاعر هو المرأة العاكسة لمعاناة شعبه ووطنه فلم يهدأ بال، ولم يقر له قرار وهو يرى أبناء شعبه يعودون إلى المربع الأول مربع الألم والمعاناة فيقول: "كيف لا والمتحكمون والمأجورون والخونة والمرتزقون...موزعون هنا وهناك على خارطة الأحداث ... من هذا الواقع ...بدأ حصار الإعلام الرسمي والحزبي والصحفي عليه في عهد عبد الكريم قاسم ولنقل من السنة الثانية من حكمه" (الجواهري م.، ١٩٩١، صفحة ج٢/٢٥٦).

يخرج الجواهري في شعر الحزين بين حنينه للمكان والأهل وبين الألم والعنف، إذ تأجبت مشاعر الحنين في نفس الجواهري بعد اغترابه رغم أنفه عن وطنه، إذ سافر إلى إيران وأمضى مدة طويلة من الزمن عام (١٩٢٤)، مما أثار فيه الشوق والحنين إلى وطنه الأم (الاعرجي، ٢٠٠٣).
إن الاستبدال المكان لم يوهن من سلطان حب الوطن في نفس الجواهري ولم يخمد حنينه وشوقه لوطنه الذي رسمه بقلبه، إذ كان حب الوطن ينبض في قلب الجواهري حيث ينتقل جسده وعلى هذا فلم يشكل البلد الذي نزع إليه بديلاً عن بلده التي نزع عنها (الجواهري خ.).

لقد بقي الجواهري على هذه الحالة بعد انتقاله إلى براغ الجميلة، والتي بالرغم من جمالها لم تسمح جراح الغربة في قلب الجواهري برأئته الحزينة المليئة شوقاً والمتقدة جمرًا لوطنه، والتي كان عنوانها (بريد الغربة) التي جسدت اليأس والملل الذي ملأ نفسه بسبب طول مسيرة حياته الطافحة بالآلام والأحزان، وعلى الرغم من وصف الجواهري ل (براغ) بأنها أجمل بلد ارتحلت إليه نفسه، إلا أنه بقي يصارع لوعة التغرب، ويكتوي بنار التشرد والحنين إلى وطنه وأخوانه وأحبائه، فتراه يبكي على شبابه الضائع وعلى فراق أحبته وأصحابه الذين ظل يتمنى لقاءهم فالدنيا لا تعني له شيئاً مقابل أمله بالعودة إليهم (الجواهري خ.، صفحة ٦٦).

الرثاء قديماً وحديثاً

الرثاء لغة:

من خلال قراءتنا في المعاجم اللغوية نجد أن كلمة الرثاء تتألف من ثلاثة أصول:
الأصل الأول: "رثا" بالهمزة يرثا رثيئة، والرثيئة من اللبن، ورثأت اللبن خلطته ((يقال رثا اللبن؛ خثر والاسم الرثيئة، قالوا في أمثالهم "إنَّ الرثيئة تفتأ الغضب" وهي اللبن الحامض، أرثأ عليهم أمرهم إذا اختلط" (الزمخشري، ١٩٩٦).

الرثاء اصطلاحاً:

قال ابن منظور: "رثى فلان فلاناً يرثيه رثياً ومرثية، إذا بكاه بعد موته، قال فإن مدحه بعد موته قبل رثاه يرثيه، ترثيه، ورثيت الميت رثياً ورثاء ومرثاه ومرثية، ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيتته ورثوت الموت أيضاً إذا بكيتته وعدد محاسنه، وكذلك انضمت فيه شعراً" (ابن منظور، لسان العرب، ٢٠٠٣، الصفحات

ج٦/٩٩-١٠٠) وينظر (الجوهري، ٢٠٠٩)

الرثاء من أغراض الشعر الغنائي، وذلك لارتباطه الوثيق بالعاطفة والوجدان، فيبدو فيه الحزن والتعبير عن مشاعر الأسى والفجعة وهو الجانب المهم فيه، فقد يذكر الشاعر غرض الرثاء ولكن دون أن يعد محاسن المراثي، ولكن مراثيته لا تستقيم دون عواطف الحزن ومشاعر الألم، ونلاحظ ذلك في قول ابن رشيق: "وعلى الجزع يبني الرثاء" (القيرواني، ٢٠٠١، صفحة ج٢/١٧١).

النقاد العرب القدامى يرون في الرثاء المديح، باعتبار أن الشاعر الراثي هو الذي يعدد مناقب المراثي (الميت)، والتي تدعو الإنسان للبكاء عليه، لأنه بفقدته للميت، يفقد المناقب والحسنات، ونرى أن ابن رشيق يقول: "وليس بين الرثاء والمديح فرق، إلا أن يخلط بالرثاء شيء، يدل على أن المقصود به ميت، مثل (كان) أو (عدمنا به لميت)، أو ما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والاستعظام" (القيرواني، ٢٠٠١، صفحة ج٢/١٦٦).

إن غرض الرثاء كما هو متعارف عليه يعبر فيه الشاعر عن مكنونات نفسه من خلال التجارب التي مر بها ومنها الخوف والأسى والتفجع لفقدان ما هو عزيز ومحبيب على النفس، وللرثاء صور وألوان شتى منها النذب، وهو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب، عندما يعصف بهم الموت ويمكننا القول: "هو النواح والبكاء على الميت، بالعبارات الشجية والألفاظ الحزينة، التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة" (شوقي، ١٩٥٥)؛ وذلك أن الرثاء يبني على الخوف والبكاء والحزن والتفجع.

اما الرثاء حديثا فيقول الدكتور عمر فاروق الطباع في تعريفه للرثاء: "... والرثاء هذا هو التعبير بالذات: التفجع على الميت، وبكاء فضائله، وتصوير مشاعر الوجدان حيال حادثة الموت، ولا رأي ثان هذا اللون من العاطفة، قد ارتقى خلال الأعصر، وعبر الأجيال الإنسانية، حتى استوى فنا من الفنون الغنائية" (الطباع، ١٩٩٦).

ونعلم في حقيقة الأمر أن الرثاء يدور حول الإنسان بحد ذاته، فالشاعر إن لم يرث نفسه فهو يرثي إنسانا فقده، سواء كان ابناً أو أختاً أو زوجاً.

إن إطار الرثاء هو أن يأتي الموت على أحد الناس، ومعانيه هي الأحزان والفجعة والفقد، والبكاء مع ذكر صفات الميت، ومن ثم يأتي بعد ذلك التأمل في هذا الوجود، عبر حياة الأنسان الزائلة، كما نلاحظه في قول إميل ناصيف: "الرثاء فن من فنون الشعر الغنائي، يعبر فيه الشاعر عن حزنه وتفجعه لفقدان حبيب، وهو يتلون بألوان مختلفة تنبعا للطبيعة والمزاج والموقف، فإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة، التي تمتع بها الفريد في حياته، كان تأبيناً، وإذا غلب عليه التأمل في حقيقة الموت والحياة كان عزاء، وقد يجتمع النذب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة، والرثاء يقترب بالموت..." (إميل، أروع ما قيل في الرثاء، ١٩٩٦)

صور الرثاء عند الجواهري

الجواهري شاعر ذو عطاء كبير جدا امتد لفترة طويلة من الزمن، عرف بمواقفة الانسانية ومشاركته الوجدانية لأبناء مجتمعه في معظم قضاياهم سيما القضايا السياسية والاجتماعية، ولذلك عند موت أحد الشخصيات السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية يثريه بألفاظ مصورة في ضوئها خسارة الأمة لفقد مثل تلك الشخصيات، وإن الظروف التي مرّ بها شاعرنا أثرت على نفسية الشاعر، وكيف أدّت به إلى تسجيلها في مراثيه فكانت تلك المراثي سجلا حافلا بأبرز الأحداث الاجتماعية والسياسية آنذاك، فضلا عن ما تميز به الجواهري من طاقة شعرية فذة وروح إنسانية عالية.

إن النصوص الشعرية التي اخترناها في بحثنا هذا بينت لنا مدى الحزن والأسى الذي تركه رحيل من رثاه، وكذلك تصوير الخسارة الكبرى لفقدهم، وكيف كان لفقدهم الأثر العميق على نفسيته.

الصورة الأولى (الأخ الشهيد)

وهذه الصورة تتجسد على الصعيد الشخصي للجواهري في شقيقه (جعفر) الذي استشهد في وثبة كانون عام ١٩٤٨م ضد (معاهدة بور تس موث) التي كانت تستهدف خيرات العراق، وتخدم المستعمر البريطاني، ف وقعت معركة الجسر - على أثر الاحتجاجات الشعبية - التي حفرت في أعماق الشاعر جرحا لا يبرأ، استقال بسببه من المجلس النيابي، واستعذب بعدها الحديث عن نموذج البطل الثائر الشهيد الذي مات من أجل حقوق شعبه، ومن أجل كرامة وطنه، لكنه بدأ بقصيدة (قف بأجداث الضحايا)، فقدم بطولة الجماعة على الفرد، وقال: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١).

قف بأجداث الضحايا لا تسل فوقها دمعاً ولا تبك ارتجالاً
لا تذل عهد الرجولات التي تكره الضعف وتأبى الانحلالاً
وتلقف من ثراها شمة تملأ الم نخر عزة وجاهاً

وفي قصيدة (أخي جعفر) التي القاها في حفل كبير مساء ١٤ شباط ١٩٤٨، بعد مرور سبعة أيام على استشهاده، التفت إلى حزنه الخاص، ومهد له بمقدمة نثرية وكأن (الفقد) لا يقدر على وصفه جنس أدبي واحد فجاءت كلمة (أحب أخي جعفر أن أخبرك) ينظر: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، الصفحات ج ٢٥٥/٣-٢٥٧) ثم بدأ بتحية البطل الشهيد: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج ٤٨٦/٣).

اتعلم ام انت لا تعلم بأن جراح الضحايا فم
فم ليس كالمـدعي قوله وليس كآخر يسـترحم

يصيح على المدقعين الجياع أريقوا دماءكم تطعموا
ويهتف بالنفر المهطعين اهينوا لئلامكم تكرموا

وجد الشاعر فرصة للتعبير عن إحساسه بالفقد، فقد جعفر بطله الخاص، لم يمنعه من تقديم الشهداء والبطولة الفردية، هناك يظهر إحساسه الصادق بالجماعة، وهنا يتحسس ألمه وفجيئته بأخيه، ومع ذلك لا يفصله عن ضحايا تلك المعركة، يخاطب وهو أحدهم، يخاطب خطاب الحي ولا يرضى بأن يحل ضمير الغائب مكان المخاطب؛ لأنه لا يريد تصديق خبر موته، ولأنه في حقيقة الأمر حي يرزق عند ربه، وهذه الحقيقة يؤمن به كل مسلم، من أكثر الصور ورودا عند الشعراء عند رثاء الشهداء، ويؤكد الجواهري قوله: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج٣/٢٦٤)

يقولون مت وعند الأساة غير الذي زعموا مزعم
وأنت معافى كما نرتجي وأنت عزيز كما تعلم

وتكمن فلسفته في صراع إيمانه القلبي والعقلي فتارة في أبياته الأولى يرثي أخيه مدركا حقيقة ظاهرة ما بعد الموت مقر بها، وتارة في أبياته الأخرى يناقض هذه الفلسفة غير مقر بها، فتظهر عليه ملامح اليأس فيعارض حقيقة الموت غير مقر بها خاضعا لفكرة أن الظلام لا يأتي بعده نور، غاب أخوه وغاب شهداء الوثبة ولم ينجلي بعد الموت حياة، يقول: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج٣/٢٦٤)

وتزعم أنك تأتي الصباح وقد كذب القبر ما تزعم

الصورة الثانية (زوجته)

قصيدة (ناجيت قبرك) تعد من القصائد الرائعة في الرثاء التي كتبها الشاعر محمد مهدي الجواهري في رثاء زوجته، يقول فيها: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج٢/٣٥٢)

مُدِّي إِلَيَّ يَدًا إِلَيْكَ يَدُ
لأبد في العيش أو في الموت نتجد
ناجيت قبرك استوحي غياهبه عن حال ضيف عليه مُعْجَلًا يَفْدُ

فالجواهري هنا يخاطب زوجته فيقول لها إما تأخذيني إليك وإلى الموت وإما تعالي إلى الحياة فنحن شخصان لا نفرق بيننا الحياة والموت، ثم يتابع قوله مخاطبا إياها إنني وقفت على قبرك أسأله وأناجيه عن حال ضيفته الجديدة التي أتنه وهي في ريعان شبابها، وهو يقصد بذلك أن زوجته قد ماتت ودفنت

وهي شابة، ويستمر في قصيدته برثاء أحبابه الذين رحلوا عنه، فيقول: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج ٣٥١/٢)

في ذمة الله ما ألقى وما أجد أهذه صخرة أم هذه كبد
قد يقتل الحزن بمن أحبابه بعدوا عنه فكيف بمن أحبابه فقدوا
تجري على رسلها الدنيا ويتبعها رأي بتعليـل مجراها ومتقـد

يقول الجواهري في هذه القصيدة انني اترك في ذمة الله ما لاقيته من هذا الدنيا، ثم ينصرف للحديث عن كبده التي تلقى ما تلقى وهل هي لحم ودم أم هي صخرة، ثم يقول الجواهري ممهدا للرثاء، إن من يبتعد عنه أحبابه عادةً يحزن عليهم حزناً شديداً فكيف بمن مات أحبابه فيقول: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج ٣٥١/٢)

أعيا الفلاسفة الأحرار جهلهم ماذا يخبي لهم في دفتيه غد
طال التحمل واعتاصت حلولهم ولا تزال على ما كانت العقد

يجادل هنا الجواهري الفلاسفة وجهودهم في تفسير ظاهرة الموت ومحاولتهم في تحليل كيفية الحياة والخلود والموت مشيراً إلى أنهم مهما حاولوا فإنهم لا يقدرون على فهمها، وذكر في أبياته لرثاء زوجته عن حقيقة الموت الثابتة وأنهم مهما حاولوا سيعودون إلى الإيمان الغيبي بالله دون فرضيات فلسفية أو آراء العلماء والشعراء فيها متمثلاً في قوله: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج ٨٨/٣)

إنّا إلى الله قول يستريح به ويستوي فيه من دانوا ومن جحدوا
وله أبيات أيضاً يذكر فيها فلسفة الموت خاضعاً لها مستوقفاً على تساؤلات كثيرة عاجزاً عن الإجابة عنها فيقول: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ج ٣٤٩/٥)

للموت فلسفة وقف ازاءها متخشعاً وبرغم انفي اخشع
أيـموت شـهم تسـتظل بخـيره دنيا، ويبقى خاملاً لا ينفع

إن الانسجام في أبيات قصيدة (ناجيت قبرك) بين تفكير الشاعر وحقيقة الموت الوجودية وتناسق أفكاره واتفاقها على أن ظاهرة الموت لا حول لها غير الإقرار بمشيئة الله جاء متناقضاً مع أبياته التي ذكر بها (فلسفة الموت) مسترسلاً أفكاره مقيد اليدين حولها مستوقفاً على فلسفتها وغايتها تاركاً سؤالاً تهكمياً لماذا الموت يأخذ الأنفع والأفضل ويبقى من لا دور له ولا نفع! وكان الدافع النفسي الذي مر به الجواهري وتجاربه مع الموت وفقد أحبابه أثر في عدم تقبل فكرة الموت،

أما في رثاء زوجته الثانية (أمونه) فله قصيدة تعد من جيد قصائده لما حفلت به من صورة ناطقة وتعابير موحية للحزن والفقدان فقد استطاع الشاعر من خلال هذه الأبيات أن يبدع في تصوير مأساة الفقد لشريكة حياته المخلصة وأم أولاده الحانية التي خطفتها يد المنون بعد أن كانت له هذه الزوجة هي الملاذ الآمن وتعينه على الزمان إذا أشد عليه فإنه يرثيها بدموع ساخنة ملتهبة راجيا موته قبل موتها الذي هو أرحم عليه، فيقول: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ٣٤٩/٥)

ها نحن أمونه ننأى ونفترق والليل يمكث والتسهد والحرق
والصبح يمكث لا وجه يصبجني به ولا بسلمات منك تنطلق
ما أروح الموت بل ما كان أبغضه لـدي إذ أنت الروح والرمق

يعد الجواهري بعد هذا الرثاء من طلائع شعراء العرب المبدعين في رثاء الزوجات في العصر الحديث، وذلك لما أوتي من سعة وصدق وتفصيل وواقعية متفاعلة مع الحدث خالقاً "شعراً غنائياً جديداً بعيداً عن المحاكاة والتقليد" (عناد، ١٩٧٤، صفحة ٨٤) فهو بهذا الرثاء يحرك المشاعر ويلهب العواطف في نفس سامعيه وملتقيه مما جعل هذا الشعر أن يكون "مرثاة غزلية تمتاز بروحها المادي والحسي والمعنوي وفي نظرتها إلى الموت والحب" (عناد، ١٩٧٤، صفحة ٧٧).

الصورة الثالثة رثاء والدته (فاطمة):

موت الأم هو لون من ألوان مآسي الجواهري التي عاشها في ظل الحسرة والفقدان، مُخلداً أمه الميتة في ذاكرته ونفسه، لتبقى حية في ضميره ووجدانه وأشعاره، باعتبار أنها فوق الغياب. لقد أطلق الشاعر وصف (قفص العظام) عام ١٩٥١م على والدته فاطمة بنت الشيخ الشريف الجواهري، وهو يودعها مغترباً إلى مصر، فكانت محتسبة الصبر، ضعيفة البنية، مفجوعة بمصرع ابنها الأصغر جعفر شهيداً، وجاء ذلك الوصف في البيت الأول من قصيدته إذ يقول: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، صفحة ٦١٥/٤)

تعالى المجد يا قفص العظام وبورك في رحيلك والمقام
وبورك ذلك العش المضوي بوحشته... وبالغصص الدوامي
تعالى المجد يا أم الرزايا تمخض عن جبابرة ضخام
تملأ القبر منها أي عطر ووجه الأرض أي فتى همام
وهبت بالثروة الكبرى دماء وروحاً وارتنكت إلى حطام

نرى الشاعر هنا يدعو والدته بـ (أم الرزايا) وذلك لما مرَّ بها من مصائب وما تحملته من محن وما انتابها

من آلام وحرق حتى وهن الجسم ومنا واستحال إلى (قفص من عظام) ويذكر الشاعر والدته حين سمعت بخبر وفاة فلذة كبدها (جعفر) وذلك بقوله: "إنَّ والدَةَ الشهيد جعفر وهي المتعبدة المؤمنة بالله والقدر المحبة لابنها كثيرا... اكتفت بضربة أو ضربتين على ركبتيها... ومن يومها وحتى يومها الأخير وهذه الوالدة الطاهرة ظلت تفتش الأرض وتنام على سجادة الصلاة وكأنها تريد أن ينطبق واقع حالها على الأمر الواقع أي تنام على الأرض التي يرقد بها قريباً من سطحها جعفر مهما يكن من أمر" (الجواهري م.، ذكرياتي، ١٩٩١، الصفحات ج ٢٩/١-٣٠)

استطاع الجواهري أن يبرع في هذا الخطاب المأساوي المؤثر الذي طغى عليه الحزن واطياف الحياة التي عاشها بين جنبات هذه الأم الوقور.

إن الجواهري لم يرث والدته في قصيدة خاصة، ولكن نلاحظ أنه استذكرها، مع أخيه جعفر، في قصيدته الرائعة (يا دجلة الخير) عام ١٩٦٢م أي بعد رحيلها بنحو عام، وقد توفيت في مدينة النجف بالعراق، عندما كان مغترباً عنها في براغ، قال لهما مخاطباً وشاهراً حزنه المخبأ، بقوله: (الجواهري م.، الأعمال الشعرية الكاملة، ٢٠٠١، الصفحات ج ١٠٦/٥-١٠٧)

ويا ضجيعي كرى أعمى يلفهما	لف الحبيين في مطمورة دون
حسبي وحسبكما من فرقة جوى	بلاعجٍ ضرم كالجمر يكويني
لم أعد أبواب ستين، وأحسبني	همّاً وقفتُ على أبواب تسعين
يا صاحبي إذا أبصرت طيفكما	يمشي إليّ على مهلٍ يحييني
أطبقتُ جفنًا على جفنٍ لأبصره	حتى كأنّ بريق الموت يُعشيني
إنّي شممتُ ثرى عفناً يضمُّكما	وفي لُهاثي منه عطر ((دارين))
بنوة وإخاء حلف ذي ولعٍ	بتربةٍ في الغد الداني تغطيني
لقد وددتُ وأسرابُ المنى خدعُ	لو تسلمان وأنّ الموت يطويني
قد مت سبعين موتاً بعد يومكما	يا ذلّ من يشترى موتاً بسبعين

وهذا اللون من الموت لا يدعو فيه الشاعر إلى حياة جديدة، وإنما يرصد حالة يعيشها هو ومعظم الناس بعد فقدان الأم الحقيقية، فتصبح الحياة بعدها دون طعم، لذلك نجد الجواهري يصور لنا كيف للقبر أن يلف أحبائه، وفراقهم بالنسبة له كالجمر الذي يلفه فهو بسبب همه هذا يحسب عمره كأنما تجاوز التسعين، ويخيل إليه طيفهما (أمه واخوه) فيمشي إليه ويحييه، ويذكر لنا أيضاً لو أن الموت تركهما على قيد الحياة

ويود لو ان الموت يلفه هو بين احضانه، وقد مات من بعد فراقهما سبعين مرة.
إن هذه اللمحات عن بعض أحزان شاعرنا الجواهري، التي جاء بها إلينا وحتمها الموت اللئيم الموجع الذي ظل يلاحقه، فأن المنية أنشبت أظافرها، وفوق نيوبها دم أخوته وأقاربه وزوجته، إن هذه الأبيات معبرة بذاتها عما تحمله من أوجاع وآلام عانى منها الجواهري وهو يودع الأحباب والأقربين إلى عالم الغيب.
ويبدو أن التعايش مع فكرة الموت وفلسفتها أخذت تسيطر على الجواهري "لأن الفلسفة هي التي يمكن أن تعلم الإنسان كيف لا يخشى الموت والاحتضار، وإن التفكير المستمر في الموت هو خير وسيلة لقهر الخوف منه، فعلى المرء أن يألف الموت، فليس ثمة شيء مألوف بمقدوره أن يكون مخيفاً..." (جاك، ١٩٨٤، صفحة ١١٦)

وبسطة الموت على شعر الجواهري، ظهرت لنا أشكال عدّة للموت وفق منظور الشاعر، وفلسفته التأملية وقناعاته الإيمانية، فقد ظهر الموت في شعره مع ما يتناسب الزمان والمكان والحدث الذي يعيشه الشاعر، مما يشعنا بأن الجواهري كان يتنفسه، فيخرج من خلال شهيقة وزفيره.

المراجع

- Ibn Rashiq Al-Qayrawani. (٢٠٠١). Al-Umda on the merits of poetry and its criticism. (Abdul Hamid Al-Hindawi, editor) Beirut: Modern Library .
- Abi Nasr Ismail bin Hammad Al-Jawhari. (٢٠٠٩). Cairo: Dar Al-Hadith.
- Al-Zamakhshari. (١٩٩٦). The Foundation of Rhetoric (Vol. ١). Beirut: Lebanon Library.
- Al-Fayrouzabadi. (٢٠٠٥). Ocean dictionary. Beirut, Lebanon: Al-Resala Foundation for Printing, Publishing and Distribution.
- Emile Nassif. (١٩٩٦). The most wonderful things said in lamentation (Volume ١). Beirut: Dar Al-Jeel.
- Emile Nassif. (no date). The most wonderful thing said in lamentation. Beirut: Dar Al-Jeel .
- Jamal al-Din Muhammad bin Makram Ibn Manzur. (٢٠٠٣). Lisan al-Arab. Beirut: Dar Sader .
- Jamal al-Din Muhammad bin Makram Ibn Manzur. (٢٠٠٣). Lisan al-Arab. Beirut: Dar Sader.
- Mansor. (١٩٨٧). Death and spiritual adventure (from myth to the modern spirit world). Damascus: Dar Al-Hikma for Printing and Publishing .
- Khayal Muhammad Mahdi Al-Jawahiri. (no date). The jeweler... the journey of a century. Damascus, Syria: Publications of the Syrian Ministry of Culture .
- Shoron Jack. (١٩٨٤). Death in Western thought. (Kamel Youssef, the translators) Kuwait: World of Knowledge Series.
- Shawqi is a guest. (١٩٥٥). Arts of Arabic Literature, Lamentations (Volume ١). Cairo: Dar Al-Maaref .
- Abdul-Rahman Badawi. (١٩٦٢). Death and genius. Cairo: Egyptian Nahda Library .
- Omar Farouk Al-Tabbaa. (١٩٩٦). Arts of Arabic Poetry (Volume ١). Beirut: Dar Al-Qalam .
- Anad Ghazwan. (١٩٧٤). Ghazal elegy in Arabic poetry. Baghdad: Al-Zahraa Press.
- Firas Al-Sawah. (١٩٩٦). The first adventure of the mind (a study in a myth). Damascus, Syria: Dar Aladdin Publications .
- Muhammad Al-Taher Ibn Ashour. (١٩٩٧). Liberation and enlightenment. Tunisia: Dar Sahnoun .
- Muhammad Hussein Al-Araji. (٢٠٠٣). Al-Jawahiri study and documents. Damascus: Dar Al-Mada Publishing .
- Muhammad Mahdi Al-Jawahiri. (١٩٩١). My Memories (Volume ١). Damascus: Dar Al-Rafidain .
- Muhammad Mahdi Al-Jawahiri. (٢٠٠١). The Complete Poetical Works (Volume ٢). Baghdad: Dar Al-Hurriya for Printing and Publishing